التحكم الارادى فى نشأة الحروب ومنعها

بقلم

الدكتور أبو مدين الشافعى

مدرس علم النفس المنتدب بكليه الآداب

تحاول الإنسانية منذ زمن طويل أن تجد الوسائل التى تمنع بها وقوع الكوارث الحربية . ولم تعد المشكلة الحربية تهدد ناحية معينة من النشاط الإنسانى بل نراها تهدد الكيان الإنسانى بأكمله .

وبتأمل بسيط فى أسباب الحروب التى حفظها التاريخ يمكننا ربطها بالتعصب الدينى أو العنصرى من جهة وبالحاجة الاقتصادية من جهة أخرى . ويعتقد بعض علماء العصر الحديث أن الأساس الاقتصادى هو الدافع الأول لكل الحروب .

وادعى قوم أن الحروب أمر ضرورى لا بدّ من أن يحدث ، وأن ليس هناك حيلة لإيقافها .

ودراسة الاتجاهين فى فهم الأساس الذى تقوم عليه الحروب يبين لنا أن الاتجاه الأول يعتبر الحرب فعلا إرادياً موجهاً نحو غاية معينة . ويكون الاتجاه الثانى ميالا إلى اعتبار الحرب نتيجة انفعال حتمى يؤدى إلى التصادم وأن هذا الانفعال « مغروز » فى الإنسان .

وإذا قارنا السلوك الاجتماعى بالسلوك الفردى وجدنا تشابها فيما يتعلق بصلة الفعل بالانفعال . ولم تظهر هذه الصلة واضحة عند الفرد إلا على أساس التكامل .

لقد ظهر أن الفرد يبدأ فى الأعوام الأولى من حياته يسلك سلوكاً انفعالياً فتكون اتجاهاته اندفاعية فى صورة استجابات لمنبهات معينة . وهذا السلوك قريب من السلوك الحيوانى . والتشابه فى السلوك راجع إلى التقارب فى التركيب العصبى من حيث الضعف فى التكامل البيولوجى .

وشاهدنا من دراسة تطور الجهاز العصبى أن السلوك الانفعالى يقل مع ترابط أعضاء الجسم بواسطة الجهاز العصبى والغدد . ويؤدى ترابط أعضاء الجسم إلى التكامل وتتحول الاستجابات من انعكاسية اندفاعية إلى أفعال موجهة نسميها أفعالا إرادية .

وإذا تأملنا هذا الانتقال من التآزر الجسمى إلى التكامل النفسى وجدنا تشابها كبيراً بينه وبين الخطوة الأخرى التى تربط بين التكامل النفسى والسلام الاجتماعى . فالتآزر الجسمى أساس التكامل النفسى وهو ضامن للسلام الاجتماعى . وعلى هذا الأساس يمكننا أن نربط بين الفعل الإرادى رمز التكامل النفسى وبين السلام الاجتماعى .

فلا يمكن إذن أن نرجع دائماً الحرب إلى « غريزة » الانفعال . فالحروب القديمة كانت فى الغالب راجعة إلى عوامل انفعالية . ونذكر الحرب التى سببت احتلال الجزائر انتقاماً من تصرف « الداى » الذى أهان مندوب فرنسا وضربه بالمروحة وقد اشتهرت هذه الحادثة باسم "Le coup d'éventail" . وأغلب الحروب العنصرية بين جنس وجنس كانت ردود فعل لمنبهات سابقة .

ونشاهد الأمر يختلف اليوم عند ما نرى حروباً أهلية شديدة لا تقل عنفاً عن الحروب العنصرية القديمة أو الحروب الدينية الطويلة . وظهرت اليوم فكرة المبادئ والحروب التى ترمى إلى حفظ التوازن بين الدول . فتبدأ الحرب لتحقيق غاية بعيدة ودفع خطر يهدد الأمة فى المستقبل . فتقوم الدولة بدور العقل الذى يفيد من الذاكرة والتجارب السابقة ليتنبأ بالخطر قبل وقوعه ، فيوجه الجسم إلى القيام بأفعال لا تلبى الرغبات الحالية وتتجه إلى أغراض بعيدة ، وقد يوقف « العقل » الأفعال الطائشة ليضمن التكيف والنجاح بواسطة أفعال موجهة . فالحكومات تقوم اليوم بأفعال موجهة توجيهاً محكماً ، وترمى إلى أغراض بعيدة تدافع بها عن كيان الأمة ، وتسعى بها إلى تحقيق راحة الأفراد الخاضعين لها . وكلما كانت الصلة بين الحكومة والشعب محكمة كانت الأفعال موجهة توجيهاً صالحاً ومحققة لأغراض نافعة . فإن اختلت هذه الصلة فإن التفكير والأعمال تتجه نحو التنظيم الداخلى كما يصرف الجسم نشاطه فى الإصلاح الجزئى ، وتقل الأفعال الإرادية الخارجية . تصاب الأمة بالشلل الإرادى والتفكك الذى يؤدى إلى التطاحن إن اضمحل ما يشبه التآزر فى الجسم وما يقابل التكامل فى النفس . وتصير هذه الأمة معرضة إلى الانفعال وتدخل فى سلسلة

حروب ارتجالية لا تفيد منها شيئاً كما يتعرض الشخص الذى فقد ضبطه إلى اصطدامات عديدة تؤدى به إلى الخطر .

وكل عوامل الثقافة والحضارة تحاول أن تحقق التضامن الاجتماعى والاتحاد حول هيئة تتحمل مسؤولية الأمة وتدافع عن حقوق الأفراد كلهم . وتعمل هذه الهيئة ساهرة متتبعة كل حركات أفرادها حتى لا يؤدى طيش واحد منهم إلى تطاحن كبير . فتستخدم الدولة القوة لتوقف بسرعة الاندفاعات الانفعالية . وتوجه القوى البشرية وغيرها نحو هدف بعيد .

وكما أن بعض الدول عرفت خطر الطيش عندها فإنها هددت به أمما أخرى وحاولت بعض الأمم أن تشن حرباً عصبية ضد أمة أخرى بإدخال الرعب بين أفرادها . فيؤدى ذلك إلى السلوك الانفعالى الذى يشل الحركة الصناعية والتقدم الفكرى .

وقد كانت الحروب القديمة الناشئة عن الاندفاع الانفعالى موجهة ضد كل شىء وتحاول أن تهدم كل ما هو قائم وتقتل كل كائن حى . ولكن الاتجاه الحديث جعل الحروب تقوم لغاية معينة وتحاول أن تصيب أهدافاً معينة . ولذلك وجدنا الرأى العام فى العالم يثور ضد الأعمال الحربية التى تصيب أهدافاً غير عسكرية .

وقد يعترض بعض الأشخاص على هذه الفكرة بحجة الخسائر الكبرى التى لحقت بالمدنيين من سلاح الطيران . ويمكن أيضاً أن يعترض علينا بآثار القنبلة الذرية فى هيروشيما فليس هناك شك فى أن الاندفاعات الانفعالية تظهر فى كثير من المواقف الحربية . وذلك لأن الاتجاه الإرادى الذى توجده الدولة الحاكمة ينقلب انفعالا عند الشعوب ، ولذلك أيضا يصعب على الدولة التى أعلنت الحرب أن توقف الحرب .

فلا يشك أحد فى أن النازية والفاشية طبختا الحرب وبذلتا جهوداً جبارة لدفع الشعبين الألمانى والإيطالى لقبول الحرب وكذلك كان موقف الحكومة الإنجليزية ، لأن الدافع الأول كان خلافاً بين الأقطاب حول الثروات الاقتصادية والمواد الخام مدد الإنتاج الصناعى .

وهنا يظهر التعارض بين الاتجاه الإرادى الذى يحاول أن يسير حسب خطة ثابتة وبين الاندفاع الانفعالى الذى لا يخضع لأى قاعدة . فمهما كان الدافع

للحرب معقولا وكانت الاستعدادات محكمة لتحقيق الغاية المنشودة فإن الفعل لا يلبث أن ينقلب إلى انفعال وكثيراً ما تؤدى الحرب إلى ضياع وخسارة يفوقان بكثير الحق المطلوب .

وتحاول كل دولة محاربة أن تحافظ على « الروح المعنوية » فى شعبها، وإذا فسرنا ذلك بلغة العلم وجدنا معناه منع ظهور الانفعال فى الأمة . ولذلك ظهر عامل الرقابة على الصحف كجزء أساسى من الأعمال الحربية وركن هام يتمشى مع الخطوات العسكرية .

وبعد ما كانت الحرب عبارة عن هجوم مادى فقد أصبح الهجوم المعنوى ذا أهمية كبرى . وأصبح الغرض الذى ترمى إليه الأفعال الحربية مهما بالنسبة للمحارب المثقف ، فإن كانت إحدى الدول المحاربة قادرة على إقناع أتباعها بأنه من حقهم أن يحاربوا ليستردوا حقوقاً مغصوبة فإنها تضمن نجاح الحرب المتواصلة المراحل دون أن يشعر المحاربون بفشل أو ضعف .

وتحاول كل حكومة الآن أن تفهم الشعوب الأخرى التى ساقتها حكوماتها إلى الحرب بأنها تحارب فى سبيل الباطل وأن حكوماتها تخدعها لتغتصب حقوق الآخرين .

وبعد ما كانت الطاعة العمياء على أساس الدافع الدينى أو النفوذ المادى فإن العامل النفسى صار يقوم بالدور الأول فى توجيه الفعل الحربى . فإن كانت المبادئ الراقية لم تؤثر فى سير الحرب الأخيرة فذلك لأن بعض الدول استعملت محاربين بعيدين فى مستواهم النفسى عن المستوى الذى يمكنه أن يقدر الصلة بين الغاية والفعل . فبدلا من الغرض البعيد الخاص بمبادئ الحرية والمساواة فى العالم حارب الزنوج وغيرهم من الشعوب البدائية فى سبيل مطامع مادية فردية تافهة . واستخدام مثل هذه الشعوب فى حرب قامت للدفاع عن مبادىء سامية كان أكبر قضاء على السلاح المعنوى الذى كانت تحارب به الجيوش الراقية . وتلاشت بهذا الموقف الصلة القوية التى نشأت بين الفكر والفعل وأدت إلى أفعال حربية حيوانية شنيعة .

ولعله يكون من الواجب على هيئة الأمم أن تراعى العامل النفسى بين المحاربين . فلا بد من أن نضع حداً للخلط بين الجيوش . فإن كانت الحرب الوسيلة الأخيرة للتفاهم فلنحافظ على الشروط الأساسية لتكون هذه الوسيلة أقل خطراً ممكناً . والمؤلم هو تفاقم أخطار الحروب الحديثة مع عدم الوصول بها إلى النتيجة المطلوبة .

بل نرانا نخرج من كل حرب بمشكلات أصعب حلا من المشكلات التى سببت الحرب . كنا استرحنا لو أننا تتبعنا السير الطبيعى للأمور وسلمنا بالحرب كنتيجة تفكير وكانت الأفعال الحربية مدفوعة بأفكار ترمى إلى مبادئ معينة ، فالطبيعى أن يتناقش الشخصان ويحاول كل منهما أن يقنع الآخر بمبادئه ويعمل على تقديم الحجج الكافية لإخضاعه لفكرته فإن كان أحدهما أقوى حجة فى الظاهر وأسكت الطرف الثانى فتكون النتيجة عادة أن يلجأ هذا الطرف إلى استعمال العنف .

وأعتقد أنه يمكن إيقاف الحروب بتنظيم طرق التفاهم الصريح . وقد اشتد خطر الحرب ودفعنا إلى التفاهم ولم يبق للقوى البشرية قيمة فى الحروب ولكن القوة الوحيدة التى أصبحت العامل الأول فى ظهور الحرب هى قوة ضبط الفعل سواء قبل الحرب أو فى أثناء الحرب . فلا بد من أن تكون القيادة فى أيدى رجال عرفوا من قبل كيف يتحكمون فى أعصابهم وعرفوا كيف يكتسبون بالتمرين إرادة جبارة ، وليس لنا حيلة لضمان سلام العالم غير اختيار رجال الحكم ، فالعالم ليس مستقراً على حال لأن اختيارحالقادة المسؤولين لم ينظم بعد ، فإننا نشاهد حروباً صغيرة فى كل أمة ناشئة من مشكلة اختيار الحكام .

ونجد أمامنا هنا أيضاً مشكلة جهل طبقات الشعب التى تتأثر بعوامل مادية تافهة ترضى الحاجة الوقتية ولا تعطى للمشكلات البعيدة العامة أى أهمية .

فإن كان المسؤولون فى العالم ضعفاء سريعى التأثر والانفعال فإنهم يعرضون العالم إلى خطر الحروب ، وإن كانوا حازمين ماسكين على زمام أنفسهم فإنهم يسيرون العالم نحو الرقى بمنع الأفعال الطائشة المؤدية إلى الاصطدام والتطاحن .

ومهما حاولنا فى فصل الأغراض المادية عن الأهداف العالية التى نسميها المبادئ فإننا لا نستطيع الوصول إلى فصل بات . ونحن نشاهد اليوم امتزاجاً قوياً بين الرغبة نحو الحرية وبين الرغبة فى الحصول على الترف المادى . فالرقى الذى وصل إليه بعض الأفراد فى الفصل بين اللذة العقلية وبين اللذات الجسمية نادر وجوده فى المجتمعات . وأخطأ بعض الحكام فى الإسراف من إغراء طبقات الشعب بإرضاء كل ميولهم المادية .

والخطورة الكبرى هى التى تهدد العالم فى تأثر برامج التعليم بالأغراض السياسية . فالضعف الذى يستولى على بعض الحكام والذى يجعلهم يخضعون البرامج التعليمية لأهداف معينة وخلق فكرة عنصرية هو وضع لبذرة الحرب فى النفوس . وبهذه

الطريقة يكون من الصعب تقريب الشعوب بعضها من بعض ، بل يكون ذلك وسيلة قوية لوضع شقة خلاف دائم بين الشعوب ، وبدلا من أن تأتى الحرب أثر انفعال أو إيحاء من فرد فتكون الحرب طبيعة « مغروزة » فى النفوس التى تجدها منساقة إلى القتال لا لشىء إلا لأنهم ربوا على كره شعب معين أو مبدأ معين .

فكما أن الثقافة والعلم ينيران الطريق أمام الفرد ليهذب أفعاله ويقوى إرادته كذلك « يجب أن يكون » فيما يختص بالشعوب ، فليس أمامنا غير طريق التربية والتعليم لنعطى للشعوب والأفراد قوة إرادة تتحكم فى الأفعال الحربية وتمنعها .

أبو مدين الشافعى